الأبحاث والدراسات 39

علماء الحجاز وعلاقتهم بخلفاء بني العباس الأول

(١٣٢ – ٢٣٢ هـ / ٧٤٩ – ٨٤٦ م) (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب: دراسات في تاريخ الحجاز السياسي والحضاري خلال العصر الإسلامي، (ق١ – ١٠ هـ / ق ٧ – ١٦ م)، لغيثان بن جريس (مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م) ، ص ص ٧٩ – ٩٧ .

الدراسة الثالثة

علماء الحجاز وعلاقتهم بخلفاء بني العباس الأوائل

(١٣٢ – ٢٣٢ هـ / ٧٤٩ – ٨٤٦ م)(*)

(*) بحث منشور في مجلة المنهل ، العدد (٥٠٢) مج (٥٤) شعبان (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) ص٢٥-٣٠

علماء الحجاز وعلاقتهم بخلفاء بني العباس الأوائل
(١٣٢-٢٣٢هـ / ٧٤٩-٨٤٦م)

من يدرس اهتمام خلفاء بني العباس الأوائل بالفقهاء والعلماء في مختلف أجزاء الدولة الإسلامية ، يجد الكثير من المعلومات المتناثرة في بطون المصادر الإسلامية المختلفة ، التي تشير إلى اهتمام خلفاء بني العباس بالعلماء ، والعمل على التقرب منهم ، سواء كان في مدينة بغداد أو في غيرها من مدن العالم الإسلامي المعروفة آنذاك .

وبلاد الحجاز المشتملة على المدينتين المقدستين ، كانت من المناطق المهمة التي حرص خلفاء الإسلام الأوائل في السيطرة عليها لتكون تابعة لهم، نظراً لقداستها ، فمكة المكرمة فيها الكعبة المشرفة ، وإليها يتجه المسلم في صلاته خمس مرات في اليوم والليلة ، وإلى مكة المكرمة يأتي الزوار والحجاج لتأدية الركن الخامس من أركان الإسلام .

أمّا المدينة المنورة فهي موطن الرسول ﷺ ، وفيها قبره الشريف ، من هنا كان حرص خلفاء بني أمية وبني العباس من بعدهم أن تكون منطقة الحجاز ولاية من ولايات دولهم ، بعد أن كانت المدينة عاصمة المسلمين أيام الرسول ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين من بعده .

وبلاد الحجاز كانت مركزاً للدعوة الإسلامية ، منها انطلقت الجيوش الإسلامية إلى البلدان المجاورة في العهد ألراشدي الذي انتهى بموت

الخلفية الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجاء العصر الأموي لتصبح ولاية من ولايات الدولة الإسلامية ، وانتقل المركز السياسي إلى بلاد الشام ، بعد أن اتخذ الأمويون مدينة دمشق عاصمة لهم ، إلا أن الشيء الذي لا يمكن تجاهله ، أن مكانتها الدينية بقية وما زالت وستبقى ، بإذن الله ، في نفوس المسلمين ، لوجود مكة والمدينة وقيام المسلمين من مختلف مناطق المعمورة في شد الرحال إليهما أ لتأدية مناسك الحج ، ولهذا كان وما زال لهما المكانة السامية في نفوس المسلمين .

وبما أنهما كانتا في بداية الدولة الإسلامية ذات أهمية سياسية تخرج منهما قرارات الحكام ، إلا أن المكانة الدينية بقيت على مر التاريخ حيث يقصدها الفقهاء والمحدثون ، وغيرهم من فئات المجتمع الإسلامي .

ولكون هذا البحث مركزاً على علماء الحجاز (وبخاصة الإمام مالك) وعلاقتهم أو علاقته بخلفاء بني العباس الأوائل ، فسوف نركز على ذكر مشاهير علماء هذه المنطقة في الفترة المعنية بالدراسة ، وعلى الأعمال المهمة التي مارسوها مع بني العباس ، وعلاقتهم بعلماء العراق الذين استوطنوا المدن الرئيسة في الأراضي الحجازية ، وتعاونوا مع الفئات المختلفة في مجتمعاتها .

ومن مشاهير العلماء الحجازيين في العصر العباسي الأول ، مالك بن أنس ، وعبد الملك بن جريج ، وسفيان الثوري ، وغيرهم الكثير ، حيث كان البعض منهم يستوطن مكة المكرمة أو المدينة المنورة بشكل دائم ،

أمثال مالك ابن أنس إمام دار الهجرة ، وسفيان بن عيينة الذي اتخذ مكة موطناً له، في حين كان غيرهم من العلماء لايمكث طويلاً في مدن الحجاز ، فسرعان ما يغادرها إلى مدن إسلامية أخرى قد تطول أو تقصر حسب الظروف ثم يعودون لزيارة الحجاز مرات ومرات ، أمثال سفيان الثوري وغيره من علماء ذلك الزمان ، وكانت أعمالهم وأعمال غيرهم من العلماء متنوعة ، كالقيام بالتعليم والتدريس وإفتاء الناس ووعظهم وإرشادهم ، واجتماعهم بالأمراء وأصحاب الشرطة والبريد وغيرهم من موظفي الدولة فيعظونهم ويُذكّرونهم بمخافة الله ن وقد يطلب من بعضهم المشورة في أمور الرعية، وقد يسند للبعض الآخر منصب القضاء ، وهذه الأعمال التي مر ذكرها قد تكون صفات مشتركة عند علماء كل عصر وفي عهد كل حاكم ، بسبب ما يحسه الفقيه من واجب تجاه مجتمعه الذي يعيش فيه ، وما يجب أن يقوم به من وعظ وإرشاد لأفراد المجتمع مع العمل الدؤُب في محاربة الرذائل والانحرافات وكل ما نهى الله عنه.

ونظرا لإدراك خلفاء بني العباس الأوائل أهمية العلماء والفقهاء في مختلف أجزاء الدولة الإسلامية وخصوصاً أرض الحرمين ، فقد كانوا يسعون للتقرب منهم والسماع إلى أقوالهم ، وتقديم المنح والأعطيات إليهم ، طمعاً في كسب ودهم ، عندما يصبحون في نظر الرعية حماة الدين فيكسبون رضاهم لتطبيقهم الأحكام والتشاور مع العلماء باستمرار قصد الإجارة والصواب في تطبيقها .

وذكرت لنا المصادر التاريخية ما كان من اهتمام خلفاء بني العباس بالعلماء والحرص على تزيين مجالسهم بهم ، والتقرب بتقديم الهدايا لهم تعبيراً عن محبتهم والاهتمام بهم . ومثال ذلك ، مجالسة الخليفة أبي عبد الله الملقب بالسفاح (١٣٢ – ١٣٦هـ / ٧٤٩ – ٧٥٣م) وأخيه الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨هـ / ٧٥٣ – ٧٧٤م) الذي زاد عن أخيه أبي عبد الله بالتقرب إليهم وكثرة زيارته ودعوته لهم ، وعلى الأخص إمام دار الهجرة (مالك بن أنس)(١).

وانفرد ابن خلكان دون غيره في ذكر زيارة الإمام مالك إلى العراق ، بينما ذكرت مصادر أخرى أنه لم يخرج من المدينة حتى وافاه الأجل ، لكن ما يمكن تأكيده وهو وجود علاقات جيده بين الخليفة والإمام مالك من جهة ، وما بين الخليفة والأئمة الآخرين من جهة أخرى كسفيان بن عيينة وغيره . ويذكر أن الإمام مالك قام بزيارة للخليفة المنصور ، فاستقبله الخليفة بالحفاوة والتكريم ، وسأله عن علماء وفقهاء الحجاز وعلى الأخص ابن أبي ذئب ، وابن أبي سبرة وغيرهما (٢) . وأشار القاضي عياض في كتابه: ترتيب المدارك ، إلى تقدير الخليفة المنصور للإمام مالك فقال : " إن رابك ريب من عامل المدينة ، أو عامل مكة ، أو احد من عمال الحجاز في ذاتك ، أو ذات غيرك ، أو سؤ سيرة في الرعية ، فاكتب لي بذلك ، أَنزل بهم ما يستحقون ، وقد كتبت إلى عمالي بهذا ، أن يسمعوا منك ويطيعوا كل ما يعهد إليهم فأنههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف تؤجر على ذلك وأنت حقيق

أن يطاع أمرك ويسمع منك " (٣) ، وهذا التصرف من قبل الخليفة المنصور تجاه الإمام مالك ربما عائد إلى أهميته عند الخليفة والحجازيين معاً ، ولذا كان لحسن معاملة الخليفة له ما يبرر ذلك ، لأنه كان يهدف إلى تدعيم نفوذه عند المسلمين ، وعلى الأخص عند أهل الحجاز ، وخاصة عند المدنيين الذين كانوا ينفرون منه ، بسبب ما ارتكبه من آثام هو وغيره من بني العباس مع العلويين في المدينة ومع الأعراب المنشقين على الخلافة (٤) ، وكل هذا دفع الخليفة المنصور إلى تحسين العلاقة معه ليستبدل الخصومة بالمحبة .

ومن اهتمام الخليفة المنصور بعلماء الحجاز أنه كان يلتقي بهم ، أثناء ذهابه إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، عند أدائه فريضة الحج ،بل ويعين البعض في بعض الوظائف التعليمية والشرعية ، وإلى هذا يشير ياقوت الحموي إلى أن أبان بن تغلب بن رياح قد عينه المنصور للوعظ والإرشاد في مسجد الرسول ، ﷺ ، قائلاً له " اجلس في مسجد المدينة وفقه الناس فإني أحب أن أرى في شيعتي مثلك " (٥) . ومن تشجيع الخليفة المنصور للعلماء ، ما ذكره ابن قتيبة في مؤلفه ، الإمامة والسياسة ، أنه طلب من إمام دار الهجرة ، الإمام مالك ، أن يعد له منهجاً لإدارة الدولة ، وفي هذا يقول " يا ابا عبد الله ضع هذا العلم ودونه ، ودون فيه كتاباً وتجنب شدايد عبد الله بن عمرو ورخص عبد الله بن عباس وشواذ ابن مسعود ، وأقصد إلى أوسط الأمور ، وما اجتمع عليه أئمة الصحابة - رضي الله عنهم -

لنحمل الناس على علمك وكتبك ونبثها في الأمصار (٦) لكن الإمام مالك أقنع الخليفة بعدم جدوى ما يصبو إليه لأن المسلمين تفرقوا في أجزاء البلاد الإسلامية ، الأمر الذي أدى إلى كثرة الآراء والمذاهب وبالتالي لن يكون الأمر سهلاً .

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ – ١٦٩هـ / ٧٧٤ – ٧٨٥م) نجد العلاقات مع علماء وفقهاء الحجاز ازدادت رسوخاً ، لما كان يبذله الخليفة المهدي من جهد في التقرب إلى علماء الحجاز والاستماع إلى آرائهم ، ومشاورتهم في كثير من الأمور الشرعية والإدارية والسياسة وغيرها من الأمور الأخرى ، إلى جانب المنح والعطايا لهم ولأهل الحجاز ، وهذا ما أشارت إليه المصادر في أماكن عديدة ، من ضمنها لقاء حدث بين الخليفة المهدي والإمام مالك بن أنس وتذكير الأخير للخليفة بأحوال الحجازيين ، وخاصة أهل المدينة ، وما هم عليه من شظف العيش ، فلم يكن من الخليفة إلا أن سارع في توزيع الأموال عليهم حيث بلغ مقدار ما صرف لهم حوالي مليونين ونصف دينار (٧) ، ومن شدة رغبة الخليفة المهدي في مجالسة الإمام مالك والسماع إليه أنه طلب منه مرافقته إلى العراق ، ولكن الإمام أستأذنه بالبقاء في المدينة مفضلاً إياها عما سواها من المدن ، فقبل عذره وأمره له بكسوة وستة آلاف دينار وتركه وشأنه (٨) .

ومما يدل على مكانة علماء وفقهاء الحجاز عند الخليفة المهدي أنه استشارهم في إعادة بناء الكعبة وجعلها إلى ما كانت عليه في عهد عبد الله

الزبير (٩) ، فقال الإمام مالك " دعها فإني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة فتركها الخليفة (١٠) ، وفي رواية أخرى أن الخليفة المهدي استشار فقهاء الحجاز في نقض منبر الرسول ﷺ وإعادة صنعه ، فقال له الإمام مالك ، إن هذا المنبر مصنوع من خشب الطرفاء ، وأنه يخاف عندما ينقض أن ينكسر ولا يصلح مرة أخرى فتركه الخليفة نزولاً عند رأي الإمام مالك وغيره من علماء الحجاز (١١) ، ويورد لنا أيضاً النهروالي رواية عن الخليفة المهدي عام (١٦٠هـ/٧٧٦م) عندما استشار بعض علماء الحجاز في توسعة الحرم المكي فأيدوه بذلك فعمل على توسعته (١٢) .

وسلك الخليفة الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ / ٧٨٦ – ٨٠٨م) نفس مسلك والده المهدي ، فيذهب إلى مدن الحجاز عند انتهائه من مناسك الحج ويحرص على مقابلة العلماء والفقهاء وأشراف الناس فيشاورهم في كثير من الأمور ، ويكثر من توزيع الصدقات على المحتاجين وتقديم الأعطيات للأشراف فيها ، بل وكان يحرص أشد الحرص في مقابلة الإمام مالك بن أنس والفضيل بن عياض وغيرهما ليسمع منهما وعظاً وإرشاداً ، بل ويذكرانه بهادم اللذات (الموت) .

ويذكر أن الخليفة هارون الرشيد أرسل وزيره يحيى بن خالد البرمكي إلى الإمام مالك يطلبه الحضور إلى مجلس الخليفة ومعه كتابه الموطأ ، وعند وصول يحيى البرمكي إلى دار الإمام وإخباره بما يريد ، قال مالك ليحيى ، أقرأ الخليفة السلام ، وقل له العلم يُزار ولا يزور ، فيرجع

يحيى بن خالد إلى الخليفة ، وما كاد يصل إلا والإمام مالك قد لحق به ، فسلم على الخليفة ثم أوصاه بفضل العلم واحترام العلماء وتشجيعهم له فشكر له الخليفة عمله هذا (١٣) .

ومن حرص الخليفة الرشيد إلى سماع أحاديث الإمام مالك وغيره من العلماء والعمل على الاستفادة من سلوكياتهم ، أن أرسل ولديه الأمين والمأمون للسماع منهم جميعاً ، والتعلم على أيديهم في المدينة المنورة ومكة المكرمة (١٤) .

وذكر لنا صاحب كتاب ، الإمامة والسياسة ، عن زيارة الخليفة الرشيد للحجاز في إحدى السنوات ، مقابلته للإمام مالك ، فعرض عليه الأخير حالة الحجازيين ، وما هم عليه من العوز والحاجة ، مذكراً إياه بسخاء والده المهدي ، فما كان من الرشيد إلا أن أمر بتوزيع خمسة ملايين دينار عليهم (١٥)، وهذا التصرف له ما يبرره ، فمنزلة الإمام مالك عند الخليفة منزلة سامية وسكان الحجاز كانوا في نظره هم سكان الحرمين وتوزيع المال عليهم كان في محله إلى جانب رغبته في نيل مرضاة الله ، ويسد حاجات سكان الحرمين ، فسيكون بالتالي هناك ، إخماد للفتن المرتقبة وذلك بعدم وجود آذان صاغية لمروجيها، أو ميل النفوس للقيام بها، بسبب ما أنعمه الخليفة على أهلها ، وعندئذ يسود في عهده ، مثلما كان في عهد سلفه، وبلغ من حرص الخليفة الرشيد في الاهتمام بعلماء وفقهاء الأمة خاصة، وموظفي المؤسسات الدينية عامة، أنْ أمر الولاة بقضاء حوائجهم ،

بعد التعرف على أحوالهم ، وفي هذا يقول ابن قتيبة في كتاب ، الإمامة والسياسة ، " أما بعد فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء ، ومن جمع القرآن واقبل على طلب العلم ، وعمّر مجالس العلم، ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء ، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم وأستبحر فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء ، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم ، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم (١٦) ، فان الله تعالى يقول

" أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ " (١٧).

وسلك الخليفة المأمون (١٩٨ – ٢١٨هـ / ٨١٣ – ٨٣٣م) نفس المسلك الذي سلكه خلفاء بني العباس من قبله ، فكان يستقبل العلماء والفقهاء ، وخاصة علماء وفقهاء الحجاز ، فيجزل لهم العطاء ويعرض عليهم مناصب القضاء في الحجاز وفي مدن أخرى من بقاع العالم الإسلامي .

ونظراً لأهمية العلماء والفقهاء في المجتمع الحجازي ، عمل خلفاء بني العباس الأوائل قصارى جهدهم في كسب تأييد الفقهاء في مواقفهم السياسية والوقوف إلى جانبهم ، وأوضح دليل على ذلك ، سعى الخليفة المنصور إلى الاتصال بالإمام مالك بن أنس ، وجعفر الصادق وسفيان بن عيينة وغيرهم ، أثناء قدومه للحجاز ، ومناقشته إياهم في كثير من الأمور ، وخاصة عند وقوع بعض الفتن السياسية في الحجاز ، ومعرفة آرائهم في

كيفية القضاء عليها (١٨) ، كم حرص في إبعادهم عن العلويين ، الثائرين ضده ، حتى يضعف شأنهم ويقلل من أنصارهم عند الرعية .

وكان الفقهاء والعلماء يُستشارون في عظائم الأمور ، من خلافة أو إدارة بلاد أو غيرها ، فقد أشارت الروايات إلى أن الخليفة هارون الرشيد استشار الفقهاء والعلماء ، - وفيهم الحجازيون - في ولاية العهد لولديه الأمين والمأمون ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ سافر إلى مكة ومعه العديد من الوزراء والأمراء ، وعدد من فقهاء وعلماء الحجاز ، ليوقعوا على ترشيح ولديه من بعده (١٩) . كم سلك نفس المسلك أمير الحجاز داود بن عيسى العباسي ، عندما أعلن الخليفة الأمين (١٩٣ – ١٩٨هـ / ٨٠٨ – ٨١٣م) عزل أخيه المأمون من ولاية العهد وتولية ولده بدلاً منه ، فلم يكن من الأمير داود بن عيسى إلا أن استشار علماء الحجاز بشأن ما فعل الأمين ، فأشاروا عليه بخلع الخليفة الأمين والاعتراف بالمأمون بدلاً منه فلم يعمل إلا بما أشاروا عليه به (٢٠) .

وفي العصر العباسي الأول ظهرت بعض المذاهب الفقهية ، فكان مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي ، وقد برز وأشتهر في المدينة خلال العقود الأولى من عصر خلفاء بني العباس الأول ، وكان في منهجه يصر على العمل بما يتوافق مع حديث ، الرسول ﷺ، بعد العمل بكتاب الله ، وقد تطور مذهبه وانتشر حتى أطلق عليه ، مذهب أهل المدينة ، أو مذهب أهل الحديث، في حين أن الإمام أبا حنيفة صاحب المذهب الحنفي ، كان قد ظهر

مذهبه في العراق ، وعمل ما يتفق مع مذهب الإمام مالك من حيث الأصول ، واختلافه في بعض الفروع . وقد تطور هذا المذهب إلى أن سمي بمذهب أهل العراق ، وأحياناً أخرى مذهب أهل الرأي ، لأن الإمام أبا حنيفة كان يلجأ إلى الأخذ بالرأي والاجتهاد ، وكان له في ذلك ما يبرره ، وهو بعد العراق عن بلاد الحجاز موطن الرسول ﷺ، وموطن حفظة الحديث ، ثم كان يرى في أخذه بالرأي والاجتهاد السلامة من الوقوع في الأخطاء التي تؤدي بصاحبها إلى الأخذ بالأحاديث الضعيفة لأن بلاد العراق كثر فيها الاختلاط وعلى الأخص أيام بني العباس ، فلم تكن مقصورة على الرجال الثقاة الذين كانوا يحفظون الأحاديث الصحيحة ، وإنما وجد فيها العجم والبربر والديالمة وغيرهم من العناصر المختلفة في أهوائها ورغباتها ، وفي مستوياتها من العلم والمعرفة ، إلى جانب الظروف والملابسات التي أحاطت بها خاصة بما يتصل بالشريعة والفقه .

وقد عاش خلفاء بني العباس الأوائل تلك العصور التي بدأ يظهر فيها التنوع في المذاهب والآراء الفقهية ، فعندما كان علماء أهل الحجاز وعلى رأسهم الإمام مالك الذي كان يدرس ويفتي في بعض الأمور الشرعية على ضوء مذهبه ، كان أيضاً الإمام أبو حنيفة وطلابه في العراق ـ أمثال ، أبي الحسن الشيباني وقاضي القضاة يعقوب أبي يوسف ـ يُعلّمون ويفتون في كثير من الأمور الفقهية التي تختلف في بعض فروعها عما كان يمارسه أهل الحجاز ، لهذا كان على الخلفاء العباسيين أن يقاربوا بين وجهات

النظر عند علماء الحجاز والعراق ، وذلك لأهميتها عند الخلفاء ، وبالتالي كانوا يسعون إلى اجتماع الطرفين والمناظرة بينهما حتى يصلوا في النهاية إلى التقارب فيما اختلفوا فيه ، وقد خفظت المصادر الكثير من تلك الاجتماعات والمناظرات التي كان يرأسها الخليفة العباسي ، وقد لا يتسع البحث لذكرها جميعاً ، وإنما نقتصر على بعض الأمثلة التي تؤيد صحة ما ذهبنا إليه ، ففي رواية ذكرها وكيع قال : قدم هارون الرشيد المدينة ومعه أبو يوسف فبعث إلى مالك : يأمرك أمير المؤمنين أن تخرج إليه فكتب إليه مالك يا أمير المؤمنين أني رجل عليل ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلى بما أراد فعل ، فأراد أن يكتب له ، فقال له أبو يوسف أبعث له حتى يجيء إليك فبعث إليه فجاءه في دار مروان ، وقد هيئ لكل إنسان مجلس ، فهيئ لمالك مجلسه الذي له ، فقال أبو يوسف ما ترى في رجل حلف الا يصلي نافلة أبداً ، قال يضرب ويحبس حتى يصلي ، قال فجاء هارون ، فقال له أبو يوسف يا أمير المؤمنين إني سألت مالكاً كذا وكذا فقال كذا ، فقال له هارون وترى ذلك يا أبا عبد الله ؟ فقال : لا، قال أبو يوسف أليس أفتيتني بذلك ؟ قال بلى ولكن أبا يوسف رجل عراقي إن أفتيه يترك النافلة يفتي الناس بترك الفريضة وأنت لا أخاف على ذلك منك (٢١) . وفي رواية أخرى يذكر أن هارون الرشيد قدم إلى المدينة " فقعد في المسجد وقعد معه أبو يوسف وبعث إلى مالك بن أنس فجاءه وعندما دخل سلم ثم جلس ، فقال هارون لمالك اجب يعقوب أبي يوسف فيما يسألك عنه قال : مالك يا أمير

المؤمنين ليس من أهل العلم أنشدك بالله هل للرسول ﷺ وقف يأخذ منه فيجعله حيث أراد الله قال هارون : نعم ، قال : فأنشدك الله هل لعمر وقف قال اللهم نعم قال : فهذا يزعم أن الوقف باطل فالتفت هارون إلى أبي يوسف مغضباً ، فقال ما تقول ، قال كان صاحبنا لا يراه وأنا أراه (٢٢) " ويقصد بصاحبنا هنا الإمام أبا حنيفة .

وكلما كان يسعى إليه الخليفة هارون الرشيد وغيره من خلفاء ذلك العصر هو تقريب وجهات النظر بين علماء المذهب المالكي وعلماء المذهب الحنفي ، ولذلك كان كثيراً ما يحصل لقاء بين الطرفين يتسم بالنقاش الحاد بل ويصل في بعض الأحيان إلى عدم موافقة أراء بعضهم لبعض ، لكن هذا كان في الجوانب الفرعية التي لا تؤثر على الأصول ولا جوهر العقيدة والفقه الإسلامي ، ومن يتوسع في البحث والدراسة لأراء الفقهاء في أواخر العصر العباس الأول وما تلاه من عهود يجد أن الحدة التي كانت بين علماء المذهبين قد تقاربت وأصبحت تصب في معين واحد ، وذلك فيما تمثل في مذهب الإمام الشافعي — في العقود التالية لعهدي الإمام مالك بن أنس والقاضي يعقوب أبي يوسف وغيرهما ، ولا يمكن إغفال المجهودات التي كان يقوم بها خلفاء وأمراء بني العباس الأوائل من أجل التقريب بين الطرفين فيما كانوا يختلفون فيه .

وخلاصة القول أن العلماء في الحجاز كان لهم دور بارز وملموس خلال العصر العباسي الأول ، ولم يكن تأثيره مقتصراً على شؤون الحياة

السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية في بلاد الحجاز ، وإنما تأثيرهم كان أيضاً يمتد إلى خلفاء وأمراء بن العباس في العراق ، بل كانت هناك صلات وطيدة وقوية بين الخلفاء العباسين الأوائل وبين علماء وفقهاء الحجاز ويظهر جلياً من الروايات والأخبار الواردة في ثنايا هذا البحث .

الهوامش والتعليقات

١- أنظر أبا يوسف يعقوب الفسوي ، المعرفة والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العُمري (بغداد ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) جـ١ ، ص٦٦٩ وما بعدها .

٢- شمس الدين أبو العباس بن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس (بيروت ، ١٩٦٨م) جـ٤ ص١٨٣ .

٣- أنظر أبا الفضل عياض بن موسى بن عياض ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك (الرباط ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) جـ٢ ، ص٩٨ .

٤- من يتابع الأحداث التاريخية في الحجاز خلال عهد الخليفة العباسي المنصور فسيجد أن أهل المدينة والأعراب الذين كانوا يسكنون خارج أرض المدينة قد انضموا مع الثائر العلوي محمد النفس الزكية عام (١٤٥هـ/٧٦٢م) ضد الخليفة العباسي ، لكن مصير أولئك الثوار كان الفشل عندما أرسل المنصور قوات عباسية من بغداد فقضت على العلويين ومن ثار معهم من أهل الحجاز ، للمزيد من التفصيلات أنظر: أبا جعفر محمد ابن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم (القاهرة ، ١٩٦٠م) جـ٧ ، ص٥٣٩ وما بعدها .

٥- شهاب الدين ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، (القاهرة ، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م) جـ١ ، ص١٠٧-١٠٨ .

٦- أبو عبد الله محمد بن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، تحقيق طه الزيني (بيروت ، ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧م) جـ٢، ص١٥٠ .

٧- للمزيد من المعلومات حول اهتمام الخليفة المهدي باهل الحجاز ، خصوصاً العلماء والفقهاء ، أنظر ابن عياض ، ترتيب المدارك ، جـ٢ ، ص١٠١-١٠٢ ، ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ٢ ، ص١٥١-١٥٢،

غيثان بن علي بن جريس " أعمال الخليفة المهدي العباسي الخيرية تجاه أهل الحجاز " (١٥٨هـ / ٧٧٤م / ١٦٩هـ / ٧٨٥م) مجلة الدارة ، العدد (٤) السنة (١٦) ١٤١١هـ ص١١٣ـ١٢٩ .

٨ـ ابن عياض ، ترتيب المدارك ، جـ٢ ، ص٩٩ـ١٠٠ .

٩ـ للمزيد من التوضيح حول تاريخ الكعبة أنظر : أبا الوليد محمد الأزرقي ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي ملحس ، (مكة المكرمة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) جـ١ ، ص٢٥٨ـ٢٠١ وما بعدها .

١٠ـ إسماعيل بن علي بن كثير ، البداية والنهاية ، (بيروت ، ١٩٦٦م) جـ١ ، ١٣٢ .

١١ـ مؤلف مجهول ، العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، تحقيق دي غوي (ليدن ، ١٨٦٩م) جـ٣ ، ص٧٢ . ابن عياض، ترتيب المدارك ج٢ ، ص١٠٥ ، ابن كثير، البداية والنهاية ج١٠ ، ص١٣٢

١٢ـ قطب الدين النهروالي ، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، (بيروت ، ١٩٦٤م) ص١٠٣ ، أنظر أيضاً غيثان بن علي بن جريس " أعمال الخليفة المهدي العباسي الخيرية تجاه أهل الحجاز " ص١١٣ وما بعدها .

١٣ـ عبد الملك بن حسين العصامي ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، (القاهرة ، ١٣٨٠هـ) جـ٣ ، ص٢٩٧ـ٢٩٨ .

١٤ـ للمزيد من التوضيحات ، أنظر مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، جـ٣ ، ص٩٨ ، ابن عياض ، ترتيب المدارك ، جـ٢ ، ص١٩ ، القاضي الرشيد بن الزبير ، الذخائر والتحف ، تحقيق محمد حميد الله (الكويت ، ١٩٥٩م (ص٢٢٣ .

١٥ـ ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ٢ ، ص١٥٣ .

١٦ـ المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٥٧ .

١٧ـ سورة النساء ، آية ٥٩ .

١٨ـ ومن الفتن التي ظهرت في الحجاز أثناء عهد المنصور ثورة العلوين في عهد محمد النفس الزكية ، كما أشرنا سابقاً ، وأيضاً ثورات بعض القبائل العربية في داخل المدينة وخارجها ، إلى جانب ظهور بعض الاضطرابات من قبل العبيد في المدينة المنورة ، للمزيد من التفصيل أنظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٧ ، ص٥٣٠ وما بعدها .

١٩ـ انظر الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٨ ، ص٢٤٠ وما بعدها ، عز الدين أبا الحسن بن الأثير ، الكامل في التاريخ ، (بيروت ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م) جـ٦ ، ص١٧٣ .

٢٠ـ المصدر نفسه ، جـ٦ ، ص٢٦٦ .

٢١ـ وكيع أبو محمد بن خلف بن حيان ، أخبار القضاة ، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي (القاهرة ، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م) جـ٣ ، ص٢٥٩ـ٢٦٠ .

٢٢ـ المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٢٦٠ .